

الديكتاتوريات الحديثة

كان الاعتقاد السائد في أوائل القرن العشرين أن الديمقراطية هي المثل الأعلى للحكم ، وأنها هدف الإنسانية المقصود ، ومثابة الأمم المتحضرة ، وأنها تتقدم نحوها بخطوات متفاوتة وصور مختلفة ، وكان في بعض الأمم عقبات كثيرة تعترض طريقها من عادات موروثية ، وتقاليد متأصلة ، ولكن كان الظن الغالب أن شيوع الاستنارة ، وسريان الأفكار الحرة ، سيقضيان على ذلك كله ، ولم يكذب ينقض أقل من ثلث هذا القرن حتى نبذت النظام الديمقراطي أمم عدة ، وأصبحت الديمقراطية في حاجة إلى ما يبرر وجودها ، ويعيد عرض قضيتها ، وتنكر لها بعض من كان يظن أنهم من حمايتها وأنصارها ، وقلبوا لها ظهر المجن ، وأوسعوها نقداً وتجريحاً ، وأشد ما كان يستدعى الأسف ويثير العجب هو موقف بعض الرجال الذين يعتزون إلى الفكر من الديمقراطية ، وشماتتهم بها ، وثناؤهم على خصومها ، وتحذلقهم في نقدها ، وتفقيهم في تعديد عيوبها ، وادعاء اليأس من إصلاحها . ومبعث الغرابة في سلوك أمثال هؤلاء المفكرين هو أن الديمقراطية

قد أثبتت أنها هي الحالة الجوهرية لحرية الفكر ، فكيف يرضى إنسان ينتسب إلى الفكر ، ويزعم أنه يحيا للفكر ، أن تغل حرية الفكر ؟ وكل صراع بين الديمقراطية وغيرها من نظم الطغيان ، إنما هو في الواقع صراع بين الحرية الفكرية والعبودية السافرة أو المقنعة

وليس الخيار بين الديمقراطية والديكتاتورية نوعاً من المفاضلة بين كفاية الحكومة وعجزها ، فإنه لم يثبت بطريقة حاسمة أن الديكتاتورية أقدر على مواجهة الشدائد وتفريج الأزمات من الديمقراطية ، ولا يستطيع أحد أن ينكر على الديكتاتورية مقدرتها على الجمعية والطنطنة ، والإبراق والإرعاد ، والمبادرة إلى إعلان الحرب . ومهما قيل في الدفاع عن الديكتاتورية وتحميذها فلا يمكن إخفاء أن الديكتاتورية والعبودية من معدن واحد ، وأن الديكتاتورية في كل أمة مصدرها شهوة بعض النفوس المطبوعة على الضراوة والمكابرة للنفوذ الشخصي ، والميل إلى اصطناع الإرهاب ، والاعتماد على القوة وحدها في كم الأفواه ، والاستيلاء على وسائل الدعاية وتنظيم أساليب التربية للعمل على خلق عقلية متشابهة موحدة مسلوكة الامتياز والاستقلال

ولفظ ديكتاتور مصدره روما ، ولكن نظام الحاكم الأوتوقراطي كان معروفاً عند اليونان ، فقد كانت الحياة المضطربة الصاخبة في المدن اليونانية تجعل الطغيان مظهراً كثيراً الحدوث ، وكان الديكتاتور يظهر في صورة الإنسان الأعلى الذي يستولى على زمام الأمور في إبان الأزمات ، ويرحب به الشعب ويعتبره رجل الساعة ومخلص أمته ، وكان ينحني من الميدان عند ما تنتهي مهمته أو يتكشف ضعفه ، وكان يعتبر وجوده حالة طارئة لمعالجة أزمة مستعصية

وقد تكررت في التاريخ سوابق الرومان واليونان ، ولكن الحكم المطاق الذي ينهض بأعبائه أحد أفراد الأسر التاريخية المعروفة لا يشبه الديكتاتورية ، لأن جوهر الديكتاتورية الامتياز الشخصي ، لا اللقب الشرعي ، أو شرف المنبت ووضاحة الحسب ، وهي تجيء عند ما تنحرف الأمور عن سيرها المستقيم ، وتشتد الأزمات ، ويكفهر الجوّ ، ويعجز الحاكم الشرعي عن تسيير الأحوال وتصفية الموقف ، أو عند ما يشتد قلق الناس ، وتتكشف أوهامهم ، وتحيط بهم المخاوف ، ويستولى عليهم الجزع ، ويفقدون ثقتهم بأنفسهم ، فتتاح إذ ذاك الفرصة لقوة من الخارج لتجمع

شملهم وتتولى قيادتهم . وتتفاوت قدرة الديكتاتوريين ، فقد كان نابليون الأول مثلاً طاغية عبقرياً ، وكان ابن أخيه نابليون الثالث طاغية غير عبقرى لا يجيد سوى مظاهر الخيلاء وتصوير الخلد . وتختلف أنواع الديكتاتوريات ، ففيها الشريفة المتعالية مثل ديكتاتورية كرومويل ، وفيها الوضيعة المسفة مثل بعض الديكتاتوريات التي ظهرت في أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية وقد شاء سوء الحظ لكارلايل أن يكيل المدح ، ويصوغ عقد الثناء لأحد هؤلاء السفاحين في إحدى مقالاته ، وهو المعروف باسم الدكتور فرانسيس طاغية بارجواي ، وقد جر هذا المقال على كارلايل لوم النقاد وعتاب الأصدقاء

والديكتاتوريات الحاضرة كلها وليدة الحرب السالفة ، ولولاها لما أمكن تصورها . وسبب تفشى هذا المرض هو اقتران الأهواء السياسية والأحقاد القومية بالبوؤس الاقتصادى والضييق المادى والاضطراب النفسى ، وقد تركت الحرب السابقة أوروبا منقسمة إلى معسكرين ، معسكر الغالب المصمم على الاحتفاظ بكل ما فى يده ، ومعسكر المنهزم المغلوب التائق إلى استرداد كل ما فقده . والصلح الذى عقد لم يكن من أنواع الصلح الذى يأسو الكلام

ويضمند الجروح ، ويطفي نيران العداوة المستعرة والأحقاد الفائرة وقد كانت تلك المعركة العنيفة كالزوبعة المدمرة العاتية لا تترك وراءها سوى الخراب والأطلال المدايسة ، ولكن في عصر الرقي العامي وتقدم المخترعات كان من السهل علاج ذلك وإصلاح ما أفسدته الحرب لولا ما أصاب الحياة الاقتصادية من اضطراب في الأعوام التي تلت الحرب ، وذلك لأن الحياة الاقتصادية في الأمم لا تقوم على الإنتاج وحده ، وإنما تعتمد كذلك على التوزيع ، فإذا تيسرت أسبابه ، وتمهدت سبيله ، انتظمت الحياة الاقتصادية وعم الرخاء ، وقد أقامت الحرب الحواجز والعراقيل في طريق التوزيع ، فلما وضعت الحرب أوزارها لم تعد الحالة إلى ما كانت عليه قبل نشوبها ، فهم الضيق والكساد ، وتخرجت الأزمات ، وكان الحقد السياسي والضيق الاقتصادي خير معوان لزيادة القلق النفسي الذي تلا الحرب . ومن ثم اقترنت في أذهان الشعوب فكرة الديمقراطية بصور الشقاء والآلام والضيق الاقتصادي . ولم يكن عجيباً أن تذوى الديمقراطية وتبدل في الأمم التي لم تكن قد أنفتحت وتأثلت فيها أصولها .

وفي جو مضطرب مأجج مثل ذلك الجو لم يكن غريباً أن يبحث الناس عن رجل يخلصونه بثقتهم ويولونه إعجابهم ويعقدون عليه آمالهم . من أمثلة ذلك بولونيا عندما بعثت في ختام الحرب من قبرها ، فقد كان المارشال بلسودسكى منيفاً على أقرانه ، بارزاً بين مواطنيه ، فأصبحت في يده مقاليد الأمور وتوجيه السياسة .

وفي سنة ١٩٢٦ لم يعجبه عمل مجلس النواب ، فتقدم إلى وارسو وقلب نظام الحكومة وصار ديكتاتوراً في كل شيء وإن لم يدع اللقب ، وآثر أن يعمل من وراء ستار ، وأن يكمل العمل اليومي إلى من يختارهم من رجاله ، وظل لبولونيا برلمان صوري وتركيا مثل بولونيا كان بطل انقلابها مصطفى كمال الذي كسب لها الحرب ، فقد ألقى قادة حزب تركيا الفتاة بأنفسهم في أحضان دولتي الوسط ، فلما عقدت الهدنة وتمت الهزيمة ، خلا الميدان لزعيم جديد ، فترك مصطفى كمال القسطنطينية ، ورفع علم القومية العثمانية في أنقرة بعيداً عن مرمى مدافع الحلفاء ، وهاجمته جيوش اليونان فردهم على الأعقاب مهزومين ، وأجلاهم عن آسيا الصغرى ، وعزق معاهدة سيفرس ، وأقام على أنقاض السلطنة العثمانية الجمهورية الجديدة الناشئة ، وأحدث التغييرات المعروفة

مثل استبدال الطربوش بالقبعة ، واتخاذ القانون السويسرى بدلاً من قوانين الشريعة الإسلامية

ولم تشتبك إسبانيا فى الحرب السابقة ، وظلت محتفظة بحيادها واستطاعت بذلك أن تنمى مواردها وتزيد ثروتها ، ولكنها كانت مصابة بكثرة عدد رجال الجيش ، مما أثقل ميزانيتها ، وجعل أحوالها مضطربة منقلبة ، وكان كل قائد إسباني يوم نفسه أنه موفد من قبل العناية الإلهية للنهوض بأمتة وإصلاح شؤونها ، وازدادت الأحوال سوءاً من جراء الهزائم المتوالية التى منيت بها الجيوش الإسبانية فى مراكش ، وفى سنة ١٩٢٣ حدثت تلك الهزيمة الشنعاء التى قتل فيها الجنرال سلفستر ، وعرف أن سببها الخطة التى أوصى الملك باتباعها ، وقبل أن يتسع الوقت لحصر التبعة ، وجلاء الحقيقة ، أقام الجنرال بريمو دى ريفيرا حكماً ديكتاتورياً استمر ست سنوات ، وكان لهذه الديكتاتورية بعض المزايا ، إذ تمكنت من إعادة السلام إلى مراكش ، وطهرت الإدارة من بعض العيوب المتفشية ، ولم تسفك دماء ، ثم اختلف دى ريفيرا مع رجال الجيش وتخلّى عنه الملك ، فهرب إلى فرنسا ، ولم يعجب ذلك بطبيعة الحال

أنداده من الديكتاتوريين ، لأنه لم يجرد أعداءه من سلاحهم ولم يناضل عن مركزه ، والواقع أن الديكتاتورية لا مناص لها من أن تقتنن بالإرهاب لتصون حوزتها وتحمي ذمارها ، وعمل العجبة — كما يقولون — يقتضى كسر البيض

ودلفاس قبل أن يفتك به النازيون أزال الحكومة النيابية من النمسا ، وخلفه شوشنج حتى انضم النمسا إلى ألمانيا وأقام الملك اسكندر في يوجوسلافيا حكماً ديكتاتورياً أسفر عن قتله وقد حمله على ذلك وجود أقليات سياسية كثيرة ، وقوميات مختلفة وعدم توفر الخبرة السياسية ، وتفاقم الخلاف بين الصربيين والكرواتيين ، وفي ألبانيا انتزع السلطة شريف ألباني وأقام نفسه ملكاً أوتوقراطياً حتى ضمها إيطاليا

والديكتاتوريات الثلاث البارزة في أوروبا هي الديكتاتورية الروسية ، والديكتاتورية الإيطالية ، والديكتاتورية الألمانية ، وأقدمها عهداً هي الديكتاتورية الروسية ، وقد كان نظام الحكم في روسيا ممعناً في الفساد جديراً بالهدم ، وكانت الحكومة الروسية في القرن التاسع عشر تمثل مظهراً عجيباً ، كانت ناجحة في الخارج فاشلة في الداخل ، وقد ضمت بين سنة ١٨٦٠ وسنة ١٩٠٠

أقاليم شناسمة في آسيا الوسطى ، وبرغم هزيمتها في الحرب اليابانية كانت تحلم بالتوسع وانتزاع الولايات من تركيا وبسط نفوذها في البلقان ، ولكن الموقف الداخلي كان يزداد تراجعا ، وكان آخر القياصرة من أسرة رومانوف المعروفة شديد العجز سيء الإدارة فاستشترى في عهده الفساد وعم الظلم ، وقد حذره بعض الواقفين على دخائل الأحوال في روسيا من الحرب ، وأوضحوا له أنها قد تسفر عن انهيار النظام القيصري ، ولكنه لم يأخذ بنصيحهم ، والمعتدلون الذين تساموا بمقاليد الحكم بعد سقوط القيصرية كان يمكن أن يصادفهم التوفيق لو بادروا إلى عقد الصلح مع ألمانيا ، ولكنهم أبوا إلا متابعة الحرب ، وقد نشأت الديكتاتورية في روسيا في آثار الهزيمة ونتيجة للرغبة الملحة في عقد الصلح التي كانت تجيش في نفوس الروسيين ، وهذه الرغبة لم تجد لها صدى في نفس كرنسكي وأتباعه ، وقد استغل ذلك لينين ، وأقام على أساسه الديكتاتورية الروسية ، ولما مات في سنة ١٩٢٣ كان قد أتم عمله ، ووطد ديكتاتوريته ، ومهد السبيل للديكتاتور الحالي ستالين ، والحزب الذي يرأسه ستالين يفرض إرادته في مناحي الحياة القومية جميعها ، فالناس لا يسألون عما يريدون ، وإنما يتلقون

ما يريده لهم هذا « الانسان الأعلى » وعمل الصحافة هو إذاعة أفكاره وتحميد خطته ، وتمتاز الديكتاتورية الروسية بأرائها المتطرفة في نبذ الدين ، ومحاولة اقتلاع جذوره ، واعتباره أثراً من آثار الماضي الدائر ، وبتفسيرها المادى للتاريخ

وقد خرجت إيطاليا منتصرة في الحرب السابقة ، ولكنها مع ذلك لم تقنع بنصيبها من الغنائم والأسلاب ، وزادها هماً على هم الخلافات السياسية التي كانت تمزق وحدتها وتزلزل كيانها ، واشتدت بها الضائقة الاقتصادية في نهاية الحرب لأنها تنقصها الخامات التي تستورد من الخارج ، واستفحلت أزمة البطالة ، وارتفعت الأسعار وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى تفشى المبادئ الاشتراكية والتطرف فيها ، ولم يكن هناك شخصية بارزة تتجه إليها الأبصار وتنقاد لها في القيام بالأعمال الإنشائية ، وأخذت مبادئ الشيوعية تتغلغل في طبقة العمال . وفي سنة ١٩٢٢ احتل العمال المصانع ، ولم يرد جيولتي رئيس الوزارة الركون إلى القوة ، وعرف العمال عجزهم عن إدارة المصانع فانسحبوا ، واشتد خوف الطبقة المتوسطة من الانقلاب الشيوعى ، وحدثت اضرابات واعتصابات كثيرة ، ووقعت بعض حوادث إرهابية ولم يظهر الاشتراكيون مقدرة

ولا كفاية ، ونشأت كتل فاشية مختلفة عمل موسوليني على توحيدها وجمع صفوفها ليستطيع قلب الحكومة ، وحقيقة أن الثورة الاشتراكية كانت آخذة في الخمود قبل مجيء الفاشية — كما يقرر خصومها — ولكن ذلك لم يكن جلياً في سنة ١٩٢٢ ، وفي خريفها كان الزحف على روما ، وبعد استقالة جيواتي لم يكن هناك من يسد مسده ، فكان ذلك موسوليني من التقدم إلى روما ورفض الملك طلب رئيس الوزراء إعلان الحكم العرفي فاستقالت الوزارة ، واستدعى رئيس الفاشست إلى القصر الملكي ، ولم يبدأ باستعمال سلطته المطلقة ، مثل لينين وهتلر ، بل تعاون مع غيره من الأحزاب واستبقى حرية النشر ، وكان الرأي العام مستعداً لاستقبال حكومة لا تنتمي إلى الأحزاب الاشتراكية ، ولا إلى الأحزاب السياسية القديمة ، واحتفظ موسوليني لنفسه بمنصب رئاسة الوزارة الائتلافية

ولما هدأت الضجة التي ثارت حول مصرع النائب ماتيووني أتم موسوليني بناء الحكومة الديكتاتورية ، وحل الأحزاب التي كانت تناظر حزبه ، وفرض الرقابة على النشر ، وألغى المعارضة ، وبت العيون والأرصاد ، وليست هناك فائدة في أن ننكر على

موسوليني شخصيته الممتازة ، وجمعه بين الإدارة القوية ، والنشاط الفياض ، وقد استطاع أن يثبت في أمتة روحاً جديدة ويشحذ الهمم ، أما مسألة مدى نجاحه في معالجة الأحوال الاقتصادية فهي من المسائل المختلف عليها ، لأن إيطاليا لا تزال فقيرة ، ولا تزال البطالة من عللها المستعصية ، ويردد أنصاره أنه قد نجح في جعل إيطاليا من الدول ذوات الشأن والكلمة المسموعة في السياسة الأوربية ، وقد انتقد سياسته الخارجية نقداً موقفاً المفكر الإيطالي المعروف^(١) جيتانو سالفميني في رسالته البديعة عن الفاشية الإيطالية وكشف عن الكثير من نواحي ضعفها وجعلها إيطاليا مستهدفة لشتى الأخطار

وأحدث الديكتاتوريات عهداً وأبعدها أثراً هي ديكتاتورية هتلر ، وكما أن بسمارك احتذى مثال السياسي الإيطالي القدير كافور ، فكذلك هتلر استفاد من دراسة أعمال موسوليني ونسج على منواله ، وقد هيأت له الفرصة شدة معاهدة فرساي ، وتشجيع الفرنسيين لحزب الانفصال في أراضى الراين ، وعبء التعويضات التي أرهقت ميزانية الألمان ، وقد كان من الصعب على شعب

فيه كبرياء وأنفة أن يشاهد الجيوش الأجنبية تحتل بلاده وتغزو نواحيه الصناعية ، وقد زاد في هذا الغضب السياسي الضيق الاقتصادي ، فقد كان سقوط المارك الألماني ضربة شديدة أصابت الطبقة الوسطى ، فعسرها الفقر وتحطم كياناتها الاقتصادية ، وتبع ذلك انهيارها النفسي ، ثم انتعشت الحالة بعض الشيء حتى جاءت الأزمة العالمية في سنة ١٩٣٠ فكثر المتطلون ، واضطربت أحوال المصارف ، ونكبت الطبقات الوسطى ، وعاودتهم نوبة اليأس ، وانقطع الرجاء ، واجتمع على الألمان ألم الهزيمة وضيق الإملاق وسقوط الهيبة وانشلام الشرف ، ولم يكن لهم تقاليد أصيلة ، ولا ماضٍ ماثور في الحكم النيابي ، ولم تكن الجمهورية الديمقراطية حبيبة إلى قلوبهم ولا قريبة إلى طبيعتهم ، ولم تثر خيال شبانهم ، ولم تشعل حماسهم ، وكان أنصار النظام الديمقراطي منقسمين على أنفسهم ، واشتدت وطأة الشيوعية ، وكان الموقف يستدعي ظهور رجل يجمع تفاريق النزعات ، ويرد على الألمان ثقمتهم بأنفسهم ، وكرامتهم المسلوقة ، ففي هذا الموقف ظهر هتلر ، وثار بنظام ويمار ، وأعلن أن المانيا لم تنهزم في الحرب وإنما طعنها الخونة - وهم

اليهود والماركسيون — من الخلف ، وأن مصلحة ألمانيا تقتضي حل جميع الأحزاب السياسية المارقة الخاسرة ، وتفريق الشيع الضالة المضلة ، وأن يحل مكانها حزب جديد له سياسة خارجية قوية وبرنامج تقدمي يعمل ما وسعه الجهد على تحقيقه ، وهتار خطيب شعبي بارع ، وأستاذ متمكن في فن الدعاية ، وهو من هؤلاء الأشخاص المتعصبين ذوى الأفكار القليلة المحدودة التي لا يماون إعادتها وتكرارها ، وفي سنة ١٩٣٣ حصل النازيون على ٤٤ ٪ من الأصوات في الانتخابات التي أجريت في ألمانيا ، وبعد موت هندنبرج صار هتلر مستشاراً ، ومنذ أغسطس سنة ١٩٣٤ وهو رئيس الحكومة ورئيس الوزراء وقائد الجيش الأعلى ، وقد حل جميع الأحزاب المناوئة لحزبه ، وقيد حرية الصحافة ، وطرد اليهود من ألمانيا ، وجعل التعليم ضرباً من ضروب الدعاية ، وأقام المعسكرات لتأديب المتذمرين ومن المسائل التي تسترعى النظر في ديكتاتورية هتلر رأيه في الشعوبية فقد تأثر في شبابه بأراء جو بينو وهوستن شمبراين ، وصار ينظر إلى التاريخ والسياسة في ضوء الشعوبية . والآريون في زعمه أنبل أهل الأرض وبناء الحضارة ، ولم تكن النزعة

الآرية جديدة في ألمانيا ، ولكن هتلر جعلها قاعدة من قواعد السياسة . ومن نكد الدنيا على مفكرى الألمان وعلمائهم وأساتذة جامعاتهم أن يرغبهم هتلر على الأخذ بنظرية أثبت البحث الحديث زيفها وبطلانها

وبين الدكتاتوريات في ألمانيا وإيطاليا وروسيا بعض المشابهة ووجوه الاختلاف ، فهي جميعاً تتفق في صفة واحدة وهي استئثار حزب واحد بالسلطة وفرض إرادة واحدة ، وقد كان استيلاء هذا الحزب على القوة السياسية في روسيا مقدمة لثورة اقتصادية ترمى إلى إلغاء الملكية الفردية للوصول إلى حكومة ليس بها طبقات . أما في ألمانيا وإيطاليا فإن الجانب السياسى أوضح من الجانب الاقتصادى ، وديكتاتوريات ألمانيا تشبه ديكتاتورية روسيا فى أن كلا منهما تحاول أن تفرض نظرية خاصة على الشعب ، ففي روسيا تفرض الحكومة الفلسفة الماركسية ، وفي ألمانيا تدعو الحكومة إلى العنصرية .

والآن هل نجحت الديكتاتوريات كما يزعم أنصارها ، وفشلت الديمقراطية كما يدعى خصومها ؟ وهل حدث تحول فى عالم الأفكار

بحيث لا تستطيع الديمقراطية أن تسترد ما فقدته وانها قد تفقد أكثر مما فقدت ؟

هذه أسئلة لا نملك الآن الاجابة عنها في ثقة واطمئنان ، وإنما الذي نستطيع أن نقرره في لهجة تشبه التأكيد هو أن الديكتاتوريين قد رزقوا الإرادة المصممة ، والعزيمة الماضية ، ولكنهم لم يرزقوا الحكمة الثاقبة ، وان لهم من الطمع والطموح أكثر مما وهبوا من قدرة للسيطرة على نفوسهم وكبح جماحها ، وهم يبالغون في إظهار عيوب الديمقراطية ، ويشوهون تصوير مبادئها ، وليست الحرية الديمقراطية هي الفوضى كما يؤكدون ، وإنما هي الرغبة في التعاون والتساند القائمة على اتفاق الإرادة ، وكون الديمقراطية تهبط بالمستوى العالى من الناس ليس علاجه سحق الديمقراطية وإنما العمل على رفع مستوى الشعب ، والقانون هو أساس المجتمع ، والديكتاتوريون يزدرون القانون ، والحرية هي غاية الحركات التاريخية ، والديكتاتورية تناصب الحرية العداء ، وتناصر القوة السافرة .